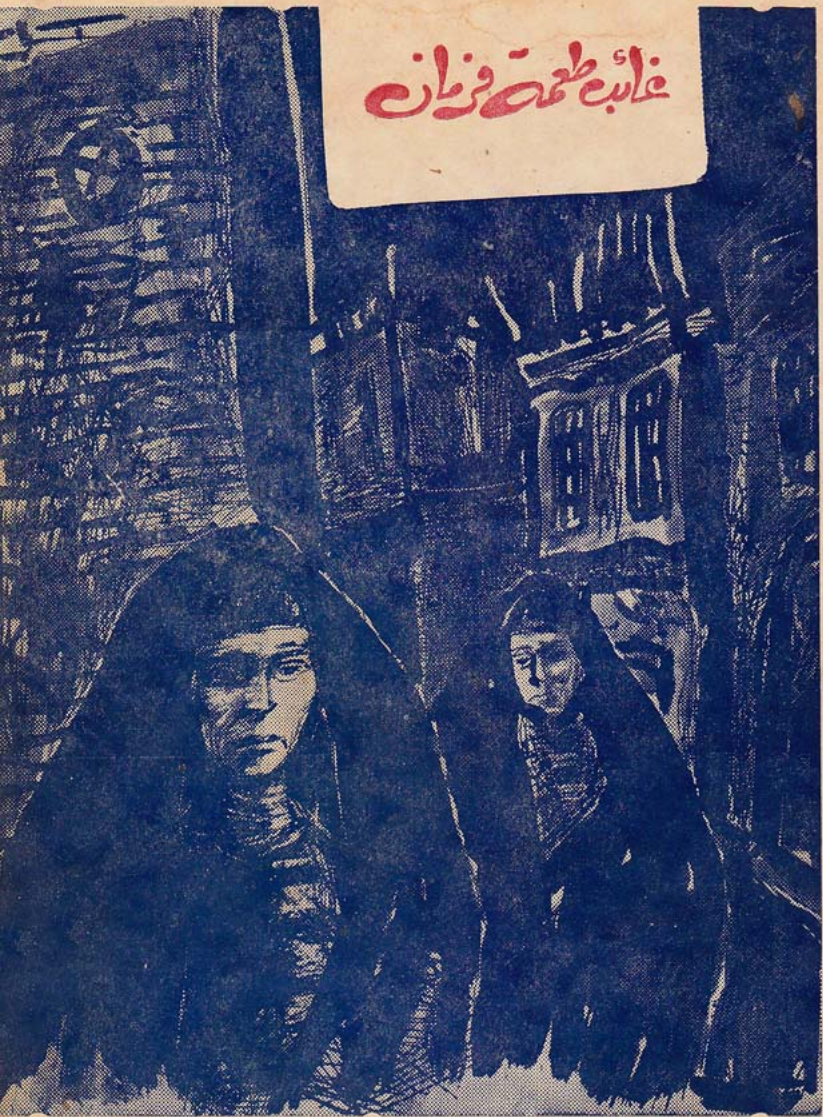


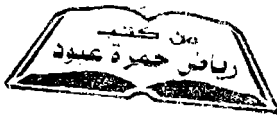
غائبه طمعه فرزان



حصيد الرحي

مدونة

Riyadh
Hamza



غائب طعمة فرمان

حصيد الرحى

مطبعة الرابطة - بغداد

١٩٥٤

مدونة

Riyadh
Hamza



الاهراء

- الى قربان الحرية الاول ٠٠ ووقودها المستعر ٠٠
- الى الجندي المجهول في كفاحنا الوطني ٠٠٠
- الى صانع التاريخ ٠٠
- الى ابن الشارع ٠٠٠٠

٠٠ غائب

١٨ آذار ١٩٥٤

مقدمة

تعتبر الصحافة أضخم معدة هاضمة في العالم •• تلتهم كل ما يقدم اليها بشراهة ونهم • ثم لا يفتأ جوعها الابدى يصرخ فى الوجوه •• طالبا شيئا جديدا ! • فهى من هذه الناحية كجهنم كلما قيل لها : هل امتلأت ؟ تجب : هل من مزيد ؟ !

والصحفيون الواقفون بجانب هذه الآلة العطشى •• كم يكلفهم سد الجشع الازرق ؟! •• وكم يكابدون لملء المعدة المثقوبة ؟!
ان الصحفى عامل بالمعنى الحقيقى للعامل •• يرتبط مصيره بالآلة الطبع يوفر لها غذاءها ، ومن عصارة فكره يمدّها باسباب الحياة ، ومن ارهاقه وتعبه تزداد اشراقا ، ومن عمره المحطم على عتبتها يطول عمرها ويمتد ! •• انها لا تترك له غير راحة قلقة ••
ففى الاوقات القصيرة الاجل الهزيلة كسعرات ذقن العنز •• يذوق الصحفى الراحة ، ويخلو الى نفسه •

فى مثل هذه الاوقات كتبت هذه الصور والاقاصيص •• بعيدا عن العمل الصحفى الذى يطلب سرعة وآلية •••• وتفكيرا خاطفا •• وهدفى أن انقل بعض صور مجتمعنا العراقى الممتلىء بالصور القاتمة بقدر ما هو مثقل النفس بالتذمر الخلاق • وان جاء نقلى خاطفا

وصحفيًا فليس الذنب في ذلك يقع كله على عاتقي .. وإنما بعضه يقع على ظروف الصحافة عندنا حيث لا تترك للصحفي إلا مجالاً ضيقاً للتفكير خارج واجباته الصحفية لا يفى بمستلزمات التصوير الأدبي الدقيق الذي يحتاج إلى تأنٍ وروية .. وإن كنت أعتقد أن الصحافة بفضل انتشارها وتغلغلها بين جميع الطبقات أستطاعت أن تهدم الأسوار التي كان يبنها بعض الأدباء الذين يشعرون بنشوة واعتزاز حين يوصفون بأنهم ليسوا من الجنس البشري !! .. فقربت الأدب من الجمهور بقدر ما قربت الجمهور إلى الأدب .. وأصبحت الصحافة المزاحم القوي للكتاب في نقله للانتاج الأدبي حقيقتها موجهة إليهم

ومن جهة أخرى .. أعتقد أن خلق أدب عراقي أصيل يتوقف على أمرين رئيسيين : احترام الحرية الفكرية وصيانتها من كل اعتداء يقع عليها .. والرجوع إلى البيئة العراقية لاستخلاص مادة الأدب منها ، والتعبير عن الشخصية العراقية بكل ما يحيط بها من ظروف .. وإظهار آمانيها وأهدافها في الحياة الحرة الكريمة .

وهما أمران يشتركان في طلبهما والإيمان بضرورتهما كل أديب واع .. وكل صحفى نظيف ..

* * *

ولا بد لي بعد هذا أن أشير إلى حقيقة واضحة وهي أن الحياة الحرة الكريمة التي يسعى إليها الشعب ويكافح من أجلها مع سائر

الشعوب لا تتحقق في جو يسوده القلق والتوتر ، وتبذل قصارى الجهود من قبل أناس معينين لاجراء صفقة أخرى هائلة للدمار الدموي الشامل في الحضارة البشرية .. فان مثل هذا الجو .. جو الحرب الشعة التي تهدد الانسان في كل مكان .. يخفق بوحشية وشراسة كل أماني الشعوب في الحصول على مستوى رفيع كريم من الحياة .. ويشل مقدرتها المطلقة على خلق ما يزيد حياتها قيمة وسموا .. فهو بذلك يهدد مصلحة الشعب العراقي بالصميم باعتباره شعبا متطلعا يريد .. أن يلحق بالقافلة الانسانية السائرة الى أمام ويكسب لنفسه نصرا مطردا ويحقق أهدافه في بناء حياة تكفل لجميع أفراده طمأنينة وسعادة وكرامة وحرية .

وعلى هذا الاساس القويم يصبح من واجب كل صحفى شريف وكل أديب مخلص لشعبه أن يظهر رغبة الشعب الاجماعية في استتباب السلام .. السلام لجميع الشعوب .. وفي جميع الاوطان ...

فقد أصبح الكفاح من أجل سلام دائم - بعد أن برزت الى الوجود الاسلحة الفتاكة التي تسلب حياة آلاف الناس بضع دقائق .. وبعد أن بات واضحا لدى جميع المواطنين المستفيد الحقيقي من هذه الحرب التي يهددوننا بها ويلوحون .. أصبح الكفاح من أجل سلام دائم هو في الحقيقة كفاحا في سبيل القيم الانسانية جميعها ..

فقد ناضلت الانسانية منذ أن نشأت المجتمعات من أجل أن تجعل حياة الانسان قيمة .. وكان نضالا رائعا ومجيدا ومتعدد الجوانب ... ضد الامراض والخرافات والانظمة البالية ... والحروب .. والعناصر المستغلة ، ضد الاضطهاد العنصرى والفكرى والاجتماعى .. ضد كل اجراء مناف لكرامة البشر .. وكان ثمرة هذا النضال أن كسبت حقوقا لا يمكن التنازل عنها ولا التهاون فيها .. حقوقا حفظت قيمة الانسان من الهدر والانتهاك وأعطت لحياته قدسية .. فاذا ما تعرضت الانسانية للحرب .. فان قيمها وحقوقها الطبيعية فى تأمين حياة أفرادها من الضياع ومن الاتزاع قسرا تتعرض هى الاخرى الى محنة قاسية بينما يكافح الناس للتخلص من كل سبب من أسباب الموت قبل أوان الموت الطبيعى تحصد الحرب بصورة شاملة هائلة ارواح الناس فى أزهر اعمارهم وأخصبها وأكثرها أقبالا على الحياة وجبا لها .. وأى كارثة أروع وأعم من أن تصاب الشعوب بشبابها!؟

وبالاضافة الى هذا كله فان كل مثقف وكل صاحب قلم يعترف بالتقافة الانسانية ويحرص على حفظها من الضياع وعلى اضافة اشياء جديدة اليها .. يدرك عظيم الادراك الخطر الذى يتعرض اليه غذاؤه الروحى حين تعول الحرب .. ان هذه المتعة الرفيعة التى اعتاد على تقديمها لنا الشعراء والادباء والفنانون منذ أكثر من الفى سنة ، التى نعز بها ونضعها فى محل رفيع من نفوسنا مهددة هى

الآخري بأن تضعي •• وكأن ارواح الذين اشربوا حب الانسانية
والتعني بامجدها ومشاعرها الخالدة وأفنوا اعمارهم في مدنا بكل
شيء جميل ممتع فاضل تحوم حولنا كطيور شميت رائحة عاصفة
مقبلة تطلب حمايتنا ونصرتنا •• وتأمين سلام وطيدها ••

وبقدر ما يتصل الامر بذكريات الشعب العراقي عن الحرب
يبدو مفجعا وأليما أن يتصور العراقي وقوع حرب عالمية جديدة ••
فان الجيل الطالع ما زال يذكر كيف كنا نجيا أبان الحرب الآخيرة ••
وما زال ماثلا أمام أعيننا •• الحبز الاسود المخلوط بالتراب والنوى
•• والغلاء الفاحش الذي مازلنا نعاني آثاره •• وما زالت مخيلتنا
ممتلئة بصورة قاتمة •• ومخجلة •• صور الجنود وهم يغازلون
فتياتنا بوقاحة ومجون غير عابئين بتقاليدنا •••• وصور الثمرات التي
انجبتها الارض العراقية الطسة وهي تنقل الى المعسكرات ••••
وتترك في شه حرمان •••

ان هذا شيء لا يطاق •••

اننا في الوقت الذي نكافح لاجل الظفر بحرياتنا الديمقراطية
••• ولقبر الاوضاع الشاذة ، والخلاص من النظم الرجعية •••
يهددنا شبح الحرب بايام سود آخر •• تصادر فيها حرياتنا الديمقراطية
وتفرض علينا قوانين استثنائية ••

وكل هذا يفرض على كل أديب وصحفي •• أن يكون واعيا
بكل ما يحاك في الخفاء •••• للقضاء على الثقافة التي يعتز بها •••

وعلى المجهود البشرى المتعاضم لبناء حياة تكفل السعادة للجميع ••
فيعمل مع الجموع العاملة من أجل خذلان كل محاولة لشل المقدرة
الانسانية وتعطيلها عن الخلق والابداع ••

* * *

وبعد ••• فان هذه المجموعة من الصور والاقاصيص يصلها
بالسلام سبب متين وان كانت لا تدور بصورة مباشرة حوله •••
فان هؤلاء المواطنين الذين تعرضهم هذه الصور ، والذين يصارعون
شدوذ الاوضاع ، ويعاركون البؤس والحرمان هم نماذج صغيرة من
شخصيات مجتمعنا العراقي الذي يطالبنا بجهود كبيرة لجعله أكثر
اشراقا وسعادة •• اننى حين أعرض هذه النماذج ادرك أن فرصتنا
الوحيدة لكس البؤس والحرمان من حياتهم لا يتم الا حين يستتب
السلام ، وتوجه جهودنا للبناء السلمى ••

ففضالنا من أجل السلام •• هو فى الحقيقة نضال من أجلهم ••
من أجل هذه المخلوقات التعسة التى تزيدها الحرب تعاسة ••
والعكس صحيح كذلك •••

غائب طعمة فرمان

حصير الزمي

- انهضى •• ان الصبح استيقظ قبلك •

فتحت الفتاة عيناها بتأقل ، وأرسلت بصرها عبر باحة البيت ، فرأت الظلام أشد ما يكون ادلهماما ، فندت من صدرها أنه خافتة ، وحسرت الغطاء عن جسمها بتأفف •••

كانت أمها قد سمعت ساعة ضريح الكيلاني تدق ثلاث دقات فهت مذعورة ، كأن الساعة مطارق هشمت نومها ، فتفتحت باب الغرفة الصغيرة ، فانبعث الهواء الرطب اليها حادا ، وشعرت بقشعريرة باهتة تسرى في جسمها ، وبوخزات البرد اللاذعة تنتشر على صفحة وجهها ككشاش زجاج دقيق ؛ فلفت رأسها بفوطتها ، وأردت جوربها الاسود ••• وسعلت بقوة مرتين ، والقت نظرة الى ابنتها وهي غارقة في نومها الدافئ فهتت أن توقظها ••• غير أن اشفاقا جارحا قد وخزها •• فترثت حتى تلم حاجياتها ، وتضع لفائف الغزل في السلة الممزقة الجوانب ، وترفع آلة الغزل الخشبية من مكنها في أقصى الغرفة ، وتضعها في مكانها المعهود في أول الايوان •

وعندما استيقظت الفتاة كانت الام قد أنجزت كل شيء •• وتهيات للخروج ، فرفعت الفتاة جسمها من الفراش بتأقل ،

وأحاطت وجهها الصغير بفقطة سوداء ، وحشرت عذاريتها
الطويلين في فوطتها ، وتطلعت الى الفضاء من خلال الباب المفتوح ،
فرأت النجوم ترتعش بوهن ... وفي الطريق هب الهواء يחדش
وجهها ... ووراءها كانت أمها تسير في خطوات قصيرة مسرعة
كأنها تخاف من الخيال الذي يولد بين رجليها ... ثم
يتضخم .. ويزداد طوله باطراد ... ويمتد عبر الشارع الضيق
الى ما لا يبلغه بصرها ... ثم يتلاشى على ضوء مصباح جديد ..
كشبح يخاف النور ... ويبلغ سمعها ارتعاش صفارة الحارس
في أحد المنعطفات ... كصراخ من حنجرة تستغث ...
وتتجاوب خفقات نعالها في السكون البارد كقدم المت على نغمات
بلهاء كتمتات الاخرس حين يشتد به الغضب ...

ورأت الدار مفتوحة الباب ، والطلست الكبير يتوسط الباحة
المربعة الشكل الممتدة وراء عنق المجاز ، وحوله حلقة من النسوة
يجلسن القرفصاء على طابوق الارض المشبع بالماء ، ملفعات
بالسواد .

كانت الدار ما زالت غارقة في الظلمة يترك المصاح الكهربي
المطل في أقصى الدار بضعة ظلال قصيرة ... مختلفة الاطوال
والحجوم ... هي ظلال النسوة المكبات على العمل تتراقص
خيالات ايديهن كأشباح طيور خائفة ... ويتدحرج ظل باهت

ينساب على الارض كدخان أسود ♦♦♦♦ فجلست هي وابتتها
بينهن ♦♦♦

كان الطست مليئا بمحلول العجين المخروط بمادة «الشريس»
تبعث منه رائحة الخميرة المتفسخة مع البخار المتصاعد بصورة
كريمة مزعجة ♦♦ وقد جلست امرأة مكفهرة الوجه سوداء البشرة
على كرسي قصير أمام قدر الماء الساخن تصب بين آونة وأخرى
الماء في الطست وترفع كتل العجين اللزجة من قدر آخر يرقد
بين رجليها وترميه في الطست المختفي وراء طبقة كثيفة من
البخار تتصاعد بغير انقطاع ♦♦♦ وكانت ايدي النسوة تمتد بلقائف
الغزل الى الطست الملتهب بتوجس وخوف ويغمسها بالمحلول
حتى تشبع اللقائف به ثم يدخلن فيها ايديهن ويحركنها
حركة عصر متوالية حتى تتساقط حمولة اللقائف من الماء ♦♦♦
وتبقى المادة اللزجة معلقة بخيوط اللقائف ♦♦♦ ثم يكررن هذا
العمل مرة ثانية ♦♦ وثالثة ♦♦ ورابعة ♦♦♦ حتى تضخم خيوط
اللقائف وتتماسك ، وتصبح جاهزة لان تتحول الى بكرات
غزل ♦♦♦♦

ومضى وقت غير قصير ♦♦ وهي جالسة الى الطست تحرك
يديها مع الايدي العديدة المكسوة بطبقة من العجين الجاف حتى
سمعت سعاله منبعثا من احدى الغرف ♦♦♦ وكانت الظلمة قد

شفت ، وسمعت زغرودة العصافير في سدرة أحد البيوت المجاورة ،
فطافت ببصرها في رقعة الفضاء القصيرة المظلة عليها ببسمة باهتة
••• وسمعت مع النسوة صوته المتحشرج وهو يقول :

– صباح الخير ••• يا بنات •

فأستقبلته باحساس غامض ••• مشوب برهبة مرحة •
وكانت النسوة اللائى جئن قبلها قد بدأن ينتهين من عملهن
••• وأخذن بوضع لفائف الغزل فى سلالهن ••• وبكثير من
الألم تلمسن أكتافهن ومفاصلهن ••• وظهرت علامات امتعاض
وألم على وجوهن المعروفة وهن ينهضن بحمولتهن الثقيلة •••
وبقيت هى وابنتها حول الطست بعد أن همدت السنة الخار
المتصاعدة منه أو كادت ••• ترسل اللفائف من بين ايديهما صوتا
رطبا كصوت فم يلفظ الماء بغيظ ••• ثم رفعت عينيها الى ابنتها
الصغيرة بحنان أخرس ••• وكان وجه الفتاة يحمل معنى عذبا
كأن قسماته الرقيقة تبسم لشيء مجهول ••• وشفتاها الصغيرتان
مطبقتان باطمئنان ودعة كأنهما يحلمان ••• وعيناها تشرقان بنور
شفاف ضاحك ••• وعندما همت بان تضع السلة الممتلئة بلفات
الغزل على رأسها سمعته يناديها ••• فصمتت لحظات قبل أن
تجيب نداءه ونظرت الى ابنتها بحيرة ••• ثم طلبت اليها أن تسبقها
الى البيت •

ودخلت غرفته فرأته يتوسط السرير الخشبي الكبير ونصف

جسمه الاسفل داخل غطاء مزركش فوقفت عند عتبة الغرفة تدرج
جسمها بعباءتها الصوفية فابتدرها بلهفة

- أوه ... أم جاسم ... أنا شديد القلق على ابنك ...
فما هي أخباره ؟

- له لله ...

- كلنا لنا الله ... أيستطيع أحد أن يتخلى عن رحمته ؟ ..
ورفع صدره قلنلا وهو يقول
- متى رأيته آخر مرة ؟

- قبل اسبوع .. ليتنى استطيع أن أذهب كل يوم ... ليتنى
أبني كوخا الى جانبه .

فنظر اليها نظرة خاطفة ، وضغط بيديه على حجره وقال
بشيء من الرقة

- ما أضعف قلب الام !

واعتملت في نفسها مشاعر جملة متضاربة وهي تسمع صوته
المحوج ، وأومضت عنهاها بذلة ، وقالت

- سنة ! ... فترة قصيرة من عمر الانسان ... لست هي
المهم ... ولكن المهم أن يخرج منها معافى موفور الصحة ...
المهم أن أراه مرة ثانية يخطر أمامي بقامته ... والا فالسجن
للرجال ...

ومسحت بذيل فوطتها قطرات كانت تتلألأ في عينيها

الشاحبتين فقال لها بلهجة مواسية

– أوه ... لا تضخمين الاشياء ماذا سيجرى له ؟ ...
أهو وحده ؟ •

وفتح السؤال أمام عنيتها بابا مضاء ، واشرق في نفسها
اعتزاز بهيج وهي تقول

– وحده كم من الشباب الجميل كالورود ينامون
معه ... في غرف مظلمة لا تصلح لان تكون اسطبلًا لخيول
العربات ... شاب ... من مختلف الناس •

وشعرت بسرور يتوثب في حناياها بخفة ونزق فتابعت قولها
بنشوة

– من مختلف الناس • محامين • اطباء • معلمين • •
كلهم أفندية ليس ابني أحسن منهم • • انهم لسوا مجرمين •
شعرت بطمأننة لذيذة كنسمة في فجر يوم من أيام
الصف ، فنظر اليها بشيء من الغطة العفوية ، وكشفت ابتسامته
العدمة المعنى عن صف لامع من الاسنان الذهبية ... وقال
بصوت ندى ينم عن سرور متسر

– آه لو كنت تعرفين كم أحمل لكم من حنان ... كم
أتألم لان ابننا بالسجن ... ونحن وانتم عائلة واحدة •
فغازل جينها شعور بالخجل ، وهي تتمم بكلمات الشكر •

وسادت فترة صمت قلقة قال بعدها وهو يهم بمغادرة

الفراش

ولكن انت ... الله يسلمك ... تحملين عرفا من العناد
... وهى طبيعة غير حسنة ... لا تورث صاحبها غير الندم
والخسارة •

فهمست بعتاب ضارع

- عناد ؟ ... عميت عيناى لو كنت عنيدة •
فلوى رأسه ونظر اليها وهو يشير الى نفسه

- اتظنين أننى لا أعرفكم ... عندما تزوج أبو جاسم كنت
أنا صديق صباه •• لقد اشتغلنا سووية فى البناء ••• وذهنا سووية
انى الكوت لنعمل فى مشروع الغراف ••• وعندما وجدت العمل
لا يأتى بثمره قلت له يا أبا جاسم دعنا نرجع الى بغداد ••• دعنا
نموت جوعا فى بغداد ولا تقبل بمرارة القلب هنا •••• ولكنه
أصر على النقاء ••• أصر حتى أودى المشروع بحياته ••••
وجئت انا الى بغداد لاشتغل بهذه الحرفة الوسخة ••• حرفة
الحياكة •

وصمت قليلا ••• ثم تابع حديثه قائلا

- لقد كان رحمه الله عندا ••• ابنك ورث العناد منه ••
كان متحمسا أكثر من اللازم •• دعى الناس تعش ••• أهو
يستطيع أن يصلح الأمر •• اذا الله لا يريد صلاحه ! ••• أوه

••• لا تدخلينا قتي ايراد ومصرف •

وسعل بحشرجة ، ودرج رأسه بكوفية وهو يقول

- المهم أنا أشعر بمسؤولية نحوكم ••• ضميرى يحاسبنى

••• أنا أعرف كم تقاسين لتدبير حياتك ••• لهذا عرضت لك

ما أردت ••• ولكن عرق العناد ما زال ينبض بدمك •

فغطت نصف وجهها بفوطتها ، وأرسلت صوتها من بين

لثامها

- أترى نورية أهلا للزواج ؟

فأجاب بحدة

- عمرها ثمانى عشرة سنة ••• أتحيينها ما زالت طفلة

••• أم انت عاشقة مرارة القلب ، والنهوض من منتصف الليل؟!

- أوه •

- ثم ••• أترين اننى لا أوفر لها كل ما تحتاج ؟ ••• اننى

حين أضعها فى بيتى ••• أشم رائحة أبيها •••

فتحشرج صوته ، فسعل وبصق على الباب ••• وقال بلهجة

تعطف

- قد أكون كبير السن ••• ولكن ماذا تريد المرأة من

الرجل أكثر من بيت مستور وعيشة رضة ••• أما شاب اليوم

فهم أكثر نزقا من الشيطان •

ومسح شاربه الكث باصابع يده وقال بشيء من الفخر

- أتحسبن ذلك طمعا منى فى شىء ؟ ... المهم أننى أريد
أن أتزوج ... فبيت الرجل لا يمكن أن يخلو من امرأة ...
وبنات اليوم - حاشا قدرك - كالزبل ... لا يسمعن برجل يريد
ان يتزوج حتى يتهاقن كالذباب ... ولكن قلت لك انها مسألة
راحة ضمير ليس غير ... والا فأننى أستطيع أن أشتري أى
امرأة بأى ثمن ما دام الله منحنى الرزق الوفير .

وأنصت اليه بعزيمة مترججة وهو يحدثها عما يستطيع
أن يفعله بماله ... وراقبت شاربه الكئ المتجهم المصبوغ تبرق
من تحته الاسنان الذهبية بريقا كريها كالعفونة ... وحاجباه
يتراقصان بطرب مفتعل ، وعيناه يتشنج فيهما شعور كاذب بالصبا
والفتوة .

وكرهت أن تفكر فى الامر وهى فى طريقها الى البيت ...
وطردت من رأسها بنفور أفكارا موحشة كالحفافيش .. وتراقص
أمام عينها خيال وجوه متنافرة تتنازعها .. خيال مخدومها بوجهه
الاسمر كرجيف محروق تعبر اسنانه الذهبية عن الغنى وبشاعة
الشباب الزاهب ... وخيال ابنها بنيانه الجسمى المتين ،
وبقسماته الصارمة ، وبمستقبله الغامض بالنسبة اليها ... وخيال
ابنتها الممتلئة بلاهة واستسلاما لا حدود له ... ثم خيال آخر
أفعم قلبها بحيرة جديدة ... وبمزيج من الاشفاق والياس
والنقمة ، وشعرت بتأنيب لاذع يندفع الى ضميرها كما تندفع خفقة

ريح رطبة الى كهف مهجور ... وأوهمت نفسها كطريقة
للخلاص أنها لم تنسه ... وأنه سبب احساسها بالضيق حين كان
أوسطة ابراهيم يغريها ، ويطلب اليها أن تزوجه ابتها ، فظلت
صامته أمام كلامه ... بلهاء حائرة لا تستطيع أن تنطق بشيء ..
وأثلج صدرها هذا التأويل ، وأطل على نفسها نور جمل كنور
النهار المشرق حولها ...

وفي المساء بدا لها الامر مقززا ... بعيدا عن مدى تصورها
فهتفت بسرها

- اوسطة ابراهيم ... أنت مثل أبيها ... أمن اللائق
أن تتزوجها؟!

وانتظرت مذاق هذه الجملة في عاطفتها المضطربة الشعاء فشعرت
برعشة هامة تسرى في جلدتها فخاطبت نفسها بأقناع

- الشاب للشباب • لقد قطعت عهدا الى نعمة أن يتزوجها
... هو صديق أخيها ... رائحته كرائحة جاسم ... ومرآه
كمرآه ... أوه ... ابراهيم ... أتحسنى مجنونة لآزواجك
نورية؟ ... لو عرفت أنني أموت جوعا ... أضع على ظهري
جرابا واستجدي الناس لما أقدمت على هذا المنكر

وشع نور الرضى في عينيها الهزيلتين وهى تقول

- لقد صدقت اننى عبيدة ...

وارتجف ذقنها العظمى الدقيق بعصية وانفعال ...

* * *

وفي اليوم التالي لم تذهب الى بيت اوسطة ابراهيم
ونامت مع ابنتها الى الضحى . . . وهو يوم نادر في حياتها . . .
لقد استيقظت كعادتها عندما سمعت ساعة ضريح الكيلاني تدق
ثلاثا . . . الا انها لم تنهض من الفراش . . . وشعرت بخور لذيد
يسرى في جسمها . . . وبراحة ناعمة بعثها الدفء في نفسها . .
والى جانبها كانت ابنتها ترقد باستسلامها الطفولي الجميل ، وجو
الغرفة المظلم يطلق الافكار من عقالها . . . فنتقل خيالها الى بيت
أوسطة ابراهيم فترى النسوة التعسات العائرات الحظ
. . . عانسات أو مطلقات . . . أو أرملات . . . أو ممن يساعدن
أزواجهن في اشاع بطون عديدة جالسات الى الطست
وتدعكها دعكا . . . فكنتسى ببطقة عجينية جافة . . . وأوسطة
ابراهيم يسعل في غرفته بقوة وحشرجة . . . جو كريبه موحش
يقتل في أعماقها كل شعور بالاطمئنان . . . وعحت لنفسها كيف
تصبر على الحياة فيه . . . تستيقظ في الساعة الثالثة لتقضى ساعات
طويلة مضحرة في البيت الخائق الكريبه الرائحة . . . وترجع
عندما ترتفع الشمس وتملأ الكون بنورها الوهاج . . . فتجلس
الى دولابها حتى يلف الظلام الارض بنقابه المعتم . . . فتقوم
محطمة القوى ، مهروسة الاعضاء ، تلمس مفاصلها وكتفيها
وتثن بصوت خافت مخافة أن يصل الصوت الى ابنتها . . . فيكدر
روحها صوت الألم الموجه .

ولم تنهض من فراشها حتى رأت الشمس تسلك من خلال
زجاج فتحة السقف الضيقة ... وفي فكرها أن يكون مساء
اليوم شيئاً حاسماً بالنسبة لها ... يريحها من اضطراب العاطفة
وحيرة الفكر ...

وخاطبت نفسها بلذة

- ماذا في نعمة ... انه نعم الزوج .. لأنه لا يملك كلفة
الزواج !

ومطت شفتها بازدياء وتابعت خطابها لنفسها

- الذين يصرون على تكاليف الزواج هم الاغنياء ... فاذا
كانت الزوجة راضية بزوجها ... فليلبسها جنفاص ... لينام
معها على الارض ... هذه مسألة بين زوج وزوجته ... لا آقف
أمامها .

وظلت تنتظر ... بترقب جميل حالم ... وقبل أن ينتصف
النهار جاءها نعمة على غير عادته ... لقد لمحت قامته الطويلة
تخطى عتبة الدار ... وسترته تتدلى من على كتفه ، فنهضت
اليه مسرعة ، وقادته الى الايوان . وجلس على الصندوق الاسود
في أول الديوان ، مطرقاً يحرك ساقه المتدلية .. فطوقته بنظرانها
المتسائلة ... ورأت شفتيه الذابلتين تغطيها زرقة غبراء . وقال
وهو يرفع عنقه بعدم مبالاة
- لقد أضربنا ! ...

فاجتاحت اعصابها المتوترة هزة مفاجئة ، وشد قسماها توتر
قاس ، وند من شفيتها صوت كالهمس
- أضربت؟! -

فرفع جسمه من فوق الصندوق وقال بحماس
- نعم أضربنا ... وتلك وسيلة مشروعة لنيل حقوقنا ..
فكورت نفسها كالقنفذ ، ونظرت الى قامته الهزيلة ووجهه
الشاحب وعينه القلقتين ... وغمرها شعور كئيب كربه فقالت
ببطء

- كأن نفوسكم زائدة عليكم ... لا تعرفون كيف
تصرفون بها

فنظر اليها بحدة وصاح
- اليس من حقنا ... أن ندافع عن أنفسنا ؟
- وبهذا الشكل ؟ ...

- أوه ... لا تحسبه عملا خارقا للعادة ... عملا منافيا
للقوانين ... هو أسلوب مسالم لاجابة مطالبنا .
فنظرت اليه بدهشة ، ولم تدرك شيئا مما يقول ... فأحست
بشيء من الفوضى يشيع فى اعصابها وخيل اليها أن معاول ضخمة
تهشم كل ما بنته ... فقالت بتوسل

- ولم تدخل نفسك فى مأزق ... أنت رجل بسيط ...
اذهب فى طريقك وتعال منه ... ولا عليك مما يعمل الناس ..

ففاضه كلامها وأجيج في نفسه نار الثورة فصاح في

وجهها

.. ماذا تظنين ... ونحن نعمل عند أوسطة ابراهيم؟!

فأحست بضيق وهو يذكر مخدومها ، وبشعور موحش ..
وتتابع الشاب حديثه وهو مستند الى العمود الخشبي وسط
الايوان

.. نحن العمال لسنا على غرارك ... وان كان كلانا أجيرا
... أنت لا يهيك حين تطرد احدى رفيقاتك .. أو جميعهن ..
لانك لا تحسبن بأى نوع من الرابطة بينك وبينهن ... وهن
يحملن لك نفس الشعور ... شعور بعدم المبالاة ... من يدري!
فقد تكن لا تشعرن بشيء اسمه المستقبل ... لانه بالنسبة
الكن شيء مجهول أو معدوم ... فمن يضمن الا يتحول أوسطة
إبراهيم غدا عن صناعته ، أو تدخل البلاد مصانع ميكانيكية
للغزل تنسف كيانه نسفا .

وتلملم في مكانه وازداد توقدا وحماسا وهو يقول

.. ولكن ... نحن العمال ... لنا مستقبل يهمننا أن يكون
مضيئا سعيدا جميلا ... وكل الانتكاسات التي تصيب واحدا منا
أو جماعة معينة تؤثر في مستقبلنا ... لهذا فنحن نهب كتلة
واحدة حين يطرد أى عامل منا ... لاننا عند ذلك نتعرض كلنا
للطرد في يوم من الايام ... حسب مشيئة غيرنا

وتنفس عميقا قبل أن يقول :

- لقد أضربنا ... لانهم طردوا ثلاثة منا ... وسنظل
مضربين حتى تجاب مطالبنا *

وظلت هي صامتة لا تدي احتجاجا ... فقد أحست بان
الافكار تفر منها هاربة ... فقد ذابت في أعماقها الحدة والغيظ
... وتلاشت غيوم الخوف من سماء نفسها ... وأصبح الامر
واضحا أمامها وضوحا موحشا ... فتطلعت اليه باشفاق ورتاء ..
فأرت شفته تهتز اهترازا خففا فغمرها عطف عميق .. وأحست
بشبه كبير بينه وبين ابنها ... باندفاعه وعاطفته المتأججة حتى
لحيل اليها أنه هو ابنها ... لقد وقف أبنا قبل شهور بمثل هذا
الموقف ... وعلى هذه الهيئة يزمرر محتدا ... فأحست بارتياح
... وأمحي من صدرها كل قلق ... وتطلعت اليه بخنان
... ونهضت تقرب منه .. وودت لو تأخذه باحضانها *

بَيْتُ الْخِنَافِسِ

كان وجهه المتغضن يتصبب عرفاً ، وعيناه الصغيرتان ترسلان نظراتهما المتقطعة من تحت جفنين متصلبين كقشر اللوزة ، ويداه تمتد عبر البخار المتصاعد في حركة دائبة أما كرشه فكان يقبع بعدم الاكتراث الى جانب القدر الكبير كقط هارب من لذع البرد !

ومع ان العربة السوداء كانت تختنق ، ويتعرض جسمها المهترىء الى هجوم من شتى الجهات فانه كان يصرخ من خنجرة رطبة فتلاشى الفتحتان الصغيرتان اللتان يرى فيهما عملاءه وتفغر فتحة حمراء أسفل أنفه ويخرج الصوت في حشرجة وامتعاض

ومع أن الاصوات حوله تناديه بحدة ، والايدي تقعق بما تحمل من صحون كصرخات احتجاج موجهة ضده فانه كان ينعم بهدوء بال ورخاوة اعصاب فلا يتأثر بما حوله ولا يعبأ بمساراة الصراخ المحدقة به فيظل يعمل بآلية ، ويلبى الطلبات بخفة صبي وبين الحين والآخر تبدأ الخنجرة تتشنج ، والفتحة الحمراء تظهر ، وقشرا اللوزة ينطبقان ثمنا للفظتين متواضعتين

- ماء لحم ... !

وبعد لحظات سمع صوت تحد أجش ينبعث من الجانب الاخير للطريق :

- عباس عجمى ... انهدم بيتك !

فتلقاه بعدم اكرات ، ولم يهتز عصب فى جسمه ... حتى عاد الصوت من جديد أكثر قوة وحنقا

- قطعت رزقنا ... الله يقطع رزقك !

فرفع وجهه المنتفخ ورمق ناحية الشارع المقابلة له بازدراء ثم انكب على عمله ثانية حتى سمع الصوت مرة ثالثة يهدر بغضب وأحس بالعربة تهتز من تحت كرشه المرتضى فيها كثنء مهممل ... فرفع جفنيه بشاقل وألم ، فرأى رجلا طويل القامة مكفهر الوجه يلوح بيديه مهددا .. فوضع عباس صحن « الثريد » على طوار العربة ... وتقدم اليه خطوة وقال بلهجته الاعجمية المهشمة

- انت ... بابا ... شيريد منى ؟

فاهترت قسمات الرجل وصاح بغيظ

- أريد ... أخذ عمرك ... لو جئت مرة ثانية الى هنا

... لفريت بطنك ...

فقال عباس وهو يرمق جمع العمال المحتشد حول العربة -عجيب ! ... انا هنا قبل أن تأتى الى الدنيا ... المحل

محلى ••• والعمال أولادى •••

فضرب الرجل العربية بقبضة يده وقال بسخرية

- أولادك ! •• وتبيع رغيف تشريب بخمسة وعشرين

••• الله يقصف عمرك ••• ماء حار وخبز ••• ألا تخاف

الله •

وسرت هممة بين العمال •• واهتز نصف عباس الاعلى

بعصية ولوح بيديه

- أنت محامى العمال •••

- محامى ونصف ••• انت رجل اجنبى •• لماذا لا ترجع

الى بلادك !؟

فارتجفت أساريه اللامعة من لفح البخار وقال بعد أن أرخى

حزامه على كرشه المتدلى

- انت دائما ••• تقول مثل هذا ••• أ أنت حكومة !؟

وارتفعت ضحكات متقطعة من حوله بعثت فى نفسه شجاعة

وحدة •

فتابع قوله بغضب ظاهر

- كل يوم تقول هذا •• عيب •• لو كنت رجلا شجاعا

لقلته للذين ينهبون النفط •• والتمر •• وكل شىء •• أنا رجل

فقير •• لو مت لبقيت جنازتى بغير كفن •

وتعالت أصوات احتجاج ضد الرجل المديد القامة المطل

على الجمع بحقده المتأجج •

كانت ساعة الغداء قد أوشكت أن تنقضى ، وأنتشر العمال في الطريق القصيرة الموحلة الممتلئة بالاقدار ، يتربعون على الارض السوداء ، بعد أن فرغوا من تناول طعامهم ، واسترخوا باجسامهم العابئة بلون التبغ النافذ •• وغير بعيد عنهم •••• في الجانب الاخر من الطريق •••• بركة ماء مستطيلة تنعت منها العفونة بقوة ، وتتراحم أسراب الذباب حول أكوام الاقدار المضطجعة على حافاتها ••••

كان جو تموز الخانق يصلى الارض شواظا •• والهواء قد فقد الحركة ، وتحول الى كابوس يضغط على النفوس ، ويتزع راحتها ؛ يتنفس الناس لها مذابا •••• وكانت البركة ترسل زفرتها التنتة باستمرار وكأنها تحس بعذاب الذين من حولها •••• وتقتحم الرائحة الصارخة الانوف ؛ فتبعث الدوار في الرأس ، وتشيع الجفاف في الحلقوم •

وعندما دعا جرس المعمل العجوز العمال الى العمل معلنا انتهاء فترة الغداء كانت قدر عباس ما زالت فيها كمية غير قليلة من الماء الاصفر ، وكان الرجل الطويل القامة ما زال ينظر اليه بشزر خلف موقده وقطع الكباب المتجمدة تتناثر على سطح مقلاته سندويجات البيض الثلاث ، وفرغ اناء الطرشى أو كاد وتبعثر النظام الذى كان يسود صفوف البطاطس والظماطم والبيض

وهى تقف بتراص على حافة الصينية الخشبية .
وأخذت الباب الصغيرة القائمة تبتلع بشره جموع العمال
حتى افترت الطريق الا من نفايات الطعام وأعقاب السكاير
وأوحال البركة المزمنة ، والأقدار المنتشرة على غير نظام عبر
الرصيف الضيق الجانب وفي الحوافي السوداء المنتنة ، وتحت
أقدام الصفائح المعدنية الصداة المنتقة المنتصبة القائمة بجيروت
كاذب بعد ان لفظت الانسام أنفاسها الاخيرة فى وهج
الشمس اللافح .

وقرب ناصية الشارع الفارقة بالوحد وقفت العربية السوداء
باسترخاء كان الجو المتوهج هشم قوتها ، فأسندت العجلة الامامية
الصغيرة جسمها الى احدى الخشبتين المربوطتين بها ، وجلس
سيدها بجسمه الممتلىء بشيء كالورم الى وعاء كبير للماء يفسل
الصحنون الملوثة بقايا الخبز المطلى بالكركم وهو يلهث لهاثا
مسموعا ، والعرق ينحدر من اسفل رفته الغليظة الى الخندق
العميق الغور الفاصل بين أكتين من اللحم تحتلان صدره مخترقا
الشعر الكث كسيقان نبت تعانى سكرات الموت ، ويسيح على كرشه
الناتئ كبطن حبلئ .

وبين آونة واخرى كان يرفع رأسه الضخم ليلقى نظرة
متلهفة الى الطريق المبسوطة أمامه . . . كأنه يرقب أحدا . .

* * *

وكان الذى يترقبه - اذ زال صريع فكرة ملكت زمام نفسه،
وتخايلت أمامه منذ الصباح برفرقتها النورانية .. ولما عاد من الكلية
الى البيت كانت تراوده بجاذبية طاغية ، وتسوح به فى فضاء رحب
من الخيال .. ويوم أمس كانت معه تخضل نفسه بالقلق الندى
ففضى المساء كله فى عمل دائب ، ينتقل من محلة الى أخرى ،
ومن بيت الى آخر باحثا عن غرفة جديدة .. بايجار معتدل ..
حتى عثر على بغيته فى أحد بيوت النصارى .. غرفة متواضعة
صغيرة تطل الشمس من نافذتها فى الساعات الاولى من النهار ،
ويفرش الطابوق أرضها . ففنع بها وصمم على الانتقال اليها مهما
كلفه الامر .. فقد ضاق ذرعا بغرفته التى عاش فيها ستة أشهر
هى المدة التى قضاها فى بغداد بعيدا عن أهله لقد امتلات رثاء بهوائها
العفن ، وسئم الحياة مع خفافسها الكثيرة وجرذاتها القليلة الحياء ..
وتراب سقفها المبتور .. لقد بدت له الحياة فيها كالسجن فى جب
تعيش معه الوحدة والكآبة .. والضجر المرعب كراس الافعى .
وفى صباح اليوم كان كل شىء قد تهاى فى خياله .. شعور
بالتقزز من بيت الخنافس .. وغرفة جديدة تفتح ذراعيها لاستقباله
... ولهف عنود للانتقال اليها ! .. شىء واحد بقى مستعصيا
عليه .. هو اذ يحصل على مبلغ من المال يدفعه ثمنا لايجار الغرفة
الجديدة ! فقد انقضى أكثر الشهر ، ولم يبق لديه غير جزء ضئيل

من الايجار .. فلا بد له حين ينوى الانتقال الى هذه الغرفة من
الاستدانة .

ولكن من أين ؟ ..

استعرض جميع معارفه واحدا بعد آخر .. وطاف خياله
بين أصحابه فردا فردا .. حتى ركن الى شخص لاح له كأرض
خضراء فى صحراء حيرته . فتصوره وافقا بجسمه الغليظ ،
وعمامته القذرة المتهدلة الى أذنيه ، والابتسامة اللهاء تكشف عن
اسنان سود ، ولثة حمراء قرمزية فهمس فى نفسه بمزيج من
الرأفة والابتهاج

- عباس ...؟!!

وفى غرفته كان خيال عباس معه يتطلع اليه بنشوة

كانت الغرفة مظلمة على الرغم من النور المشع فى الدنيا
خارجها كدهليز طويل مقفل الجوانب .. جدرانها الجرداء يبدو
طابوقها المصنوع من الطين كعظام حيوان متحجر .. وكانت
صفوف الطابوق واضحة يفصل بينها خط مظلم تتخلله ثقوب كثيرة
كمحاجر عيون ذاهبة .. وكان السقف الواطىء تمتد خلاله
الاعمدة الخشبية المتلوية كأضلع ضخمة ، وقد بد الحصر الجاثم
فوقها كربه المنظر ، أسود ، منفرا تتدلى بعض اجزائه المتآكلة
المنخوبة كأحشاء منقطعة

ولما تخطى العتبة الخشبية صدمته رائحة الظلمة العفنة المشيعة

بالرطوبة كظلمة الدهاليز التي يدفن فيها الموتى •• فالقى جسمه المنهوك على السرير الخشبي المقابل للباب ، والمجاور لمنضدة طويلة وضعت تحت قوائمها بعض الاحجار لتكون أكثر ارتفاعا من السرير •• وشك أصابعه تحت رأسه وتفرس في السقف الصامت يطل عله ببلاهة

- أيها السقف الشع كجلد انسان مسلوخ ••• سأودعك الى الابد !

قال هذا في صوت خافت ، واسترخى بلذة كقشعريرة رطبة على الفراش البارد فلاح أمامه خيال عباس منتفخ الاوداج ناتيء الطن •• بثوبه الازرق المفتوح العنق يكشف عن ثديين صغيرين متهدلين كئدى عجوز •• فتأمله بنشوة كما يتأمل الانسان قطعة أثرية غريبة الصنع •• وتذكر أول لقاء له معه حين ذهب اليه يستبدل قطعة نقد ورقية بغيرها من القطع المعدنية •• وكانت عربته رابضة على بضع أمتار من بيت الخنافس •• فرآه في حيص يبص • يتعر ببلاهة في الصحون المبعثرة على الارض ، ويدور حول العربة كالثور ، ويتمتم بكلمات لم يفهم معانيها بصوت متهدج معتوه •• والوجه الشمعى ذو البقع الحمراء يكاد يتشوه وتتلوى تقاطيعه من العرق اللزج ••• والعينان الخافتان محبوستين في اطارين من الاهداب الوطف المتراكم عليها القذى ••• والوجتان المكللتان بقطعتين من اللحم البارز يقبع الانف الاقنى

بينهما •• والفم المدوم الشفة ذو الاسنان السود • لقد رفع وجهه
اليه اذ ذاك ولوى تقاطيعه بتضرع والصق ابتسامة على فمه وقال
- عندى بعض الحساب •• تكسب أجرا من الله لو عملته لى :
فهز رأسه موافقا ، واخرج عباس ورقة عليها بقع الدهن
الاصفر وكان منظرا مضحكا طريفا حين كان عباس يتذكر اسماء
العمال

- على مطشر •• ثلاثين فلسا •• كاظم جواد ٢٥ فلسا •• و
•• و

ويهرش رأسه بقوة ، ويلوح اجهاد التفكير على محياه ،
وتتدلى عمامته على جبينه ثم يصيح بفرح
- ها •• عبود الصافي ٣٥ فلسا ••

ثم يطرق بعد ذلك منزعا ، ويمسح يديه بفوطة ، ويحاول أن
يزرر جيب قيمصه •• ويقول بعصية مضحكة
- أنا حمار •• أنسى بسرعة •• لم يمض على خروجهم نصف
ساعة •

ثم يحتد ويهتز كرشه ويقول
- ثم يقول الناس أنت تربح •• أربح من أين ؟ •• من مثل
هذه الذاكرة القدرة ••••• أوه •• لعنة الله على مثل هذا العمر
الوسخ ••

ثم يستدرك قائلا :

– أنت لو رأيتهم وهم يتزاحمون على العربية لقلت .. لو كان
في رأس عباس خمسمائة دماغ .. لما تذكر من الذى أكل .. ومن
الذى لم يأكل ..

وفى اللحظة التى تركه فيها كانت نفسه تتلوى من الألم
والاشفاق .. وفى غرفته ظل ساهما يفكر فى تلك الكتلة الضخمة
من البلاهة المعذبة تصارع مشاكلها بسيف من الخشب ، وتبذر
غضبها بغير هدى .. هنا .. وهناك

ومن ذلك اليوم اعتاد عباس عجمى أن يرقب الطريق • حتى
يراه مقبلا الى بيته .. ثم يترث قليلا قبل أن يطرق باب النرفة
ويجلس على حافة السرير ، ويمتاح بشر ذاكرته الناضب يتذكر
اسماء العمال

– عبد الستار أفندى .. انت مثل ابنى .. الحياة صعبة لمن
عنده أولاد يأكلون ولا يشبعون .. لكن ماذا أقول ؟ .. الحال لازم
أن تصلح ... غير ممكن أن تبقى الحياة على هذا المنوال الى يوم
القيامة ..

ومضت أيام زادت الرجلين تعاطفا ومحبة .. وجاءت أيام
لم يأت عباس عجمى وحده الى غرفته .. ولكن صحنا مليئا بالثريد
أصفر كالكهرم جاء معه .. فيضعه عباس على المنضدة ، ويهرش
كرشه ، ويرقب عبد الستار وهو يقول :

– ما هذا ؟ ... انا تغديت •

فينفرج الفم عن ابتسامة مبتسرة ، ويجلس عباس عجمى
على حافة السرير ويرفع كتفيه الى فوق بثقل ويقول
- هل أنا شاربه .. حتى تقول مثل هذا القول .. هذا من
رزق الله

وسرت فى جسم عبدالستار دغدغة لذيدة حين وصل فى
ذكرياته الى هنا فهتف فى نفسه :

- أوه .. عباس عجمى .. ان جلدك لا يضم لحما ودما ..
ولكن طيبة وسذاجة *

وهنا رفع جسمه فجأة بعد أن شعر بالزمن الذى قضاه فى
تهويمه الطويل .. وألقى نظرة الى اعماق الغرفة حيث ترقد أكوام
التراب الدقيق المتساقط من صفوف الطابوق .. وأحس بأن عباس
قد تأخر عن مواعده المعهود .. فنظر الى النور خارج الغرفة بقلق ..
وأنبجس فى نفسه ينبوع آسن من الظنون .. لم لم يأت عباس
حتى الان ؟ .. أوقع له حادث .. أم ماذا ؟ ..

وشيئا فشيئا خفت النور خلف الباب الموصدة ، وبهت لونه على
نحو يقبض النفس .. وعجز خصاص الباب عن نقل لون الغروب
الحائل ...

ولما طرقت بابه كان الليل قد سد نوافذ النور !
وعندما فتح الباب رأى كرشا وراءه عباس عجمى فهتف :
- عباس .. اهلا وسهلا

فدفع عباس ساقه متخطيا العتبة الخشبية النائثة وهو يلهث لهائمه المعهود .. وجلس كعادته على حافة السرير دون أن ينبس بكلمة وفي ضوء المصباح النفطي رأى عبدالستار وجهه المتفتح تتشابك فيه الظلمة والنور ، وبدت فتحتا عينيه الكليلتين أكثر وضوحا واتساعا ، وصدرة يعلو ويهبط بصورة غير طبيعية .. فحدق به قليلا وجلس الى جانبه بهدوء ، واسند مرفقه الى المنضدة في جهته اليسرى ، والقي نظرة أخرى على القسمات الشمعية اللهاء فرآها في صمتها الراكد تومض بخفوت على الضوء الشاحب فتمتم بشيء من الاضطراب :

- ألم تأت بدفتر الحساب ؟
فتحرك الفم العاطل من الشفة :
- لا ..

ثم انطبق ثانية ببرود ظاهر .. وساد صمت يوتر الاعصاب شعر عبدالستار خلاله بأن شيئا ما قد حدث .. شيئا مقبضا للروح على نحو مخيف .. وبعد لحظات قنوط سأله :

- ما بك ؟

فصر السرير الخشبي من تحت عباس ، وحرك جسمه الضخم حركة خفيفة :

- ألا يكون الموت أشرف للانسان من حياة حقيرة ؟!
فتحرك في نفس عبدالستار شعور قاتم كأعماق الغرفة في تلك

اللحظة وقال :

– ماذا فى الامر .. يستحق هذا التشاؤم

فأرسل عباس شهقة خافتة .. وسرى فى قسماته خفق
أحساس متهافت ولمع الجفنان القصيرا الاهداب وهو يقول :

– أنا .. بهذا العمر الكبير .. أليس عارا أن يضربنى أحد؟
فسأله بدهشة :

– أوه .. الفقير كالحمار .. كل من يملك عصا يضربه
وأحس الشاب بالضيق يملأ صدره بغازه الخانق فصاح به
– بالله عليك .. أفصح .. من الذى ضربك ؟ .. أفقدت
الكلام !؟

فقال بانفعال ارتجفت منه صفحتا خديه :

– صاحب البيت .. جاءنى اليوم يهدد .. يريد منى ايجار
خمسة أشهر .. سحقا لهذا العمر من أين أتى بالفلوس ؟ .. نحن
غير شعانين خبزا .. صاح فى وجهى أنت اذا لم تترك البيت
أرمى فراشك فى الطريق .. أعندى بيت للفقراء .. أم تمبل خانة
.. وضربنى على وجهى أمام الناس ، ورمى عمامتى بالطين .. أوه ..
ليتنى مت تلك الساعة .. ولا أرى الجيران يضحكون علي ..
ومسح أنفه بذيل ثوبه الازرق .. ومر بكمه على عينيه المتفتختين
بتوجس ، واهتز صدره باضطراب وتشنج وحشرجة .. وخرج
صوت عبرة مكظومة من خياشيمه بقرقرة .

ورانت على الشاب لحظات من الحيرة والجمود ، ولادت من
رأسه كلمات العزاء فلم يقل شيئاً •• وأختلس نظرة الى الرجل
الجاتم فوق السرير •• كتلة من التعاسة الخرساء •• واعتملت في
نفسه عاطفة آسرة من الحنان ••• فربت على كتفه قائلاً
- أوه •• عباس •• ليس لدى غير دينار واحد •• لو كان
ينفعك فخذ •••

ومضت تلك الليلة ••• والليالي الأخرى ••• والنداب
لم ينتقل من بيت الخنافس •

سوت أئمل

وقف بعض الوقت مسندا ظهره الى الحائط التراب ، وفكره
يتمرغ فى اعتاب غرفة منفردة ، وخياله يتوثب بين جدرانها ، وعينه
تلتهمان المستطيل المضاء بنور خافت ، والمطروح على الارض
القدرة •• وداهم قلبه اضطراب وقلق وهو يرقب باب الغرفة ،
ويرى الظل يبرز فوق صفحة المستطيل قليلا •• ثم يتضخم حتى
يكاد يملأه •• ثم ينكمش ثانية •• وتبتلع الغرفة فلا يلوح الا
الرأس المدور المعلوم الرقبة •• ثم يخرج ثانية منحيا كخيال دب
ضخم كث الشعر يدب فى الضوء ، وتتسع جوانبه ثم يتعد عن
الشاشة الملقاة أرضا ••

وسمع دقات قلبه بوضوح فى الصمت الجاثم على باحة البيت
المكشوفة ، وتريث قليلا قبل أن يتقدم خطوات نحو الباب ويفاجئه
الصوت الاجش :

– مرهون؟ ••• أهلا وسهلا

فأسند مرهون جذعه الطويل الى طوار الباب ، وأرسل بصره
الى الغرفة ، فرأى العجوز ملتفة بردائها الاسود تدب زاحفة فى
أرجاء الغرفة الضيقة •• بين البساط الكاليج اللون •• والحصير

المتآكل .. والموقد يتوسطها تلتهب ناره وترسل دخانا أزرق ..
فقال :

– أظن خيرية لا تأتي هذا الاسبوع .. أيضا

فأجابت العجوز بتلعثم وخفوت

– لست ادري ما جرى لها .. اننى قلقة ..

فمصرت قلبه كآبة طاغية .. وأضطربت شفته العليا ومال

نحو الغرفة وهو يقول :

– والنهاية يا أم خيرية؟! .. ألا ترشدني الى رأى؟!!

فرفعت وجهها الاسود الهزيل الكثير التجعدات وكفت عن

الحركة برهة وقالت بشيء من عدم المبالاة :

– وماذا بيدى ان قلبى يلتهب نارا

فهز رأسه الصغير وقال بلهجة تأنيب :

– لو كنت كذلك .. لسألت عنها وقد مضى أكثر من شهر

وهى بعيدة عنك .

فأسندت رأسها الى الحائط ، وأحضنت يداها المتشابكتان

ركبتها وقالت :

– ماذا بيدى ؟

فأنفجر ساخطا وضرب الارض بقدمه حنقا وقال وهو يشير

اليها بيده :

– أنت تظنين أننى لم أهيبء الفلوس .. أنت لا تعرفين شيئا فى

الحياة غير الفلوس •••

فقاطعه بلهجة حادة :

- من سمعت يظن اننى سأضعها بكيسى •• أو •• هذا ليس
انصافا •• خذها بعباءتها •• اننى لا أطمع بشيء ••

وسادت لحظات صمت •• وأنبعث من الموقد دخان متائب ••
فأسندت كوعها الى السرير الصغير بجانبها •• وترجرت النار
وتماوجت على وجهها المعروق •• وبدت بارزة خطوط ثلاثة سود
فوق وجنتيها •• وخنادق تحت وجنتيها وفوقهما •• وقال وهى تمط
شفتيها بكبرياء فجأة :

- من يدرى •• لعل أهل عمها منعوها من المجيء
فأحتد الشاب وصاح :

- أهل عمها •• أهل عمها •• أهم اشتروها!؟

- اللقمة تراد •• ماذا كنت أصنع لو كانت هى بغير عمل؟ ••
ومضى يجادلها •• وفى اعماقه توقدت جذوة من الثورة
المستعرة خلفها حرمان جاف وعر ، وصبر طويل العنق •• فقد
قاسى كثيرا حتى لم يعد فى نفسه موضع لقسوة أخرى •• وقضى
وقتا طويلا وهو يحلم بها حتى تحول حلمه المتكرر الى كابوس ••
وفى كل يوم خميس كان ينتظرها فى لهفة محرقة ، وشوق متونب ••
فتدخل البيت كنفحة عطر هبت من عالم غريب •• وهو جالس غير
بعيد عن غرفتها ينتظرها متكلفا عدم المبالاة •• حتى اذا مرت أمامه ،

وعبقت في نفسه رائحة انوثتها النافذة ، رمقها بنظرة حين جئ ،
وتحول لسانه الى قطعة من العظم لا يتحرك ..

غير انها انقطعت عن المجيء فجأة .. ومرت عليه أيام الخميس
كثيرة موحشة شعر فيها أن حجرا ثقيلا يهبط على نفسه فلا يستطيع
أن يتنفس الا بجهد .. وفي بعض الليالي كان يأتي الى أمها يحدثها
عما كانا قد اتفقا عليه .. فتقول له « فلوس » .. أيمن لا امرأة أن
تنام على الحصار ؟ .. اذا أردت أن تزوجها .. فدبر لك مهرا » ..
وقد ظل يبحث عن يقرضه شيئا من المال حتى وجده بعد جهد
جهيد .. غير انها بقيت في غيبتها المريبة حتى ضاق ذرعا .. فجاء
الى أمها يفرغ بعض ما في نفسه من قلق ولهفة فما زال معها في
حديث حتى أعطته عنوان مخدومها .. فمضى وهو مصمم أن يضع
حدا لعذابه *

وفي طريقه اليها كان يفكر في ما يقول لها .. في اللهجة التي
يصطنعها .. وكان يتصورها مرة على شرفة قصر مترف في قامتها
المنتلثة البضة تطل بترفع وكبرياء ، وتتهدل احدى ضفيريتهما على
نهدا البارز ، وتنساب الثانية على ظهرها ، وتبرق عيناها الواسعتان
بشيء أخاذ كان يحرق صدره ويسكر عاطفته ويتخيلها تسرع اليه
وهي تصيح

- مرهون .. مرهون .. لقد كنت على وشك أن أتى اليكم

فيعاتبها برقة

• خيرية ••• لقد راقى لك حياة القصور •• فمن نحن •
فتكلم عنها ، و يتموج فيهما السواد المعتم بالبياض الناصع ••
فطرده هذا التصور من فكره حين يراه غير معقول بعد أن يتذكر
كلامها المقتضب معه ، وتهربها منه ودلالها المتعجرف ••• فخلق
فى فكره تصورا آخر فيخاطب خيالها المائل أمامه

– لماذا غبت هذه المدة ••• ان والدتك لشديدة القلق عليك
فيمط الخيال شفتيه الممتلئين ، وتتحرك رفته العاجية
الدافئة لترمى احدى الضفيريّتين الى الورا

– أوه ••• أ أنا طفلة ••• أم لناس اصبحوا فى غير
أمان؟!

– المرأة مهما كبرت فهى كالطفلة يخاف عليها •
– كان الناس ما خرجوا وما ساهموا فى الاعمال •••
فتمتزوج المرارة بالألم فى صدره ، ويلهب أضلعه شعور

حاد

وزواجنا يا خيرية ••• أنسته؟!
وهنا يصاب خياله بالكساح فلا يعرف بماذا ستجيب •••
فيهز رأسه لطرده ركام هذا التصور المغض ••• وينهض فى
فكره تصور آخر أشد منه قتاما فتلوح له خيرية فى ثوبها الازرق
الضيق تبرز مفاتها صارخة ، وحولها عائلة مخدومها على كراسى
وثيرة فى الشرفة المطلة على حديقة غناء •• فيراها من خلال

قضبان الباب الحديدية ، فيدب الخدر في جسمه كاسراب هائلة
من النمل وينتظرها على الباب من غير أن يتكلم
الا أن ضحكات ساخرة تترامى الى أذنه ، وتنهض خيرية غاضبة ،
وتغيب في أعماق القصر فيضيق من تصوره ، وينظر الى
بنظونه الكالح يتهدل على حذائه الاسود الوسخ ، وسترته القصيرة
الاكمام المنكمشة على نفسها تكشف عن ثوب مجهول اللون ،
ويتلمس بيده وجهه الهزيل ورقبته الطويلة ، وشعره الجعد ..
وبعد افاقته لاح له الشارع العريض الانيق يمتد الى ما
لا نهاية

كان الليل قد بدأ يرمق تلك الاحياء الحاملة بطرفه الكحيل،
ونسائم ايلول تتفواح رقيقة كلمسات شفاه غير منظورة
وبدت لعينيه النخيل وأشجار الحدائق وسط الظلمة الباهتة
كظلال حوريات ولما أوغل في الشارع وابتعد عن صخب
المدينة خيل اليه ان وزنه يخف ، وان رجله تلمسان طريقهما
بخفوت وداعته نسمة حنون تهمس في روحه بعدوبة
كالفاظ الغزل فشف جسمه وتلاشى ، وبرزت روحه
الرفيقة المنسحقة ترفل في ثوب سابغ من الخيال فيشرق
أمام مخيلته عالمه الجديد وهو مع خيرية في سرير واحد
يتمرغان في دفء ولذة محمومة ، وينزلق جسده الهزيل العظمى
على جسد كالزبدة ، ويرتمي أى عضو من جسمه على رخاوة

ونعومة مرفهة ... فتراقص الغبطة فى جسمه ، وتفويض السعادة
على اساريه بحيث لا يستطيع أن يتحملها •
- أ أنا أهل لكل هذه السعادة ؟ •

ولا يجسر على الاجابة ... بلا ... أو بنعم ... الا أنه
تذكر أشخاصا غير الزواج مجرى حياتهم ... « عبود البلخي »
... زميله فى معمل واحد ، كان وجهه المجدر بشعا كالخيانة
... وجسمه الغليظ قدرا كالبلوعة ، وثيابه مهلهلة كمقل مجنون
... فلما تزوج أخذ يتخايل فى وجهه اشراق ولمعان ، وانبعث
من جسمه وثيابه رائحة الصابون • وغيره كثير • رأوا المصابيح
التي تثير مسارب حياتهم وتخلقهم خلقا جديدا •

وبدأ القمر يرسل ضوءه فى الفضاء الرحب أمامه ، وتلوح
المساحات المضاءة بنوره بعيدا عن سلطة الضوء الكهربائى كقطع
من القماش الازرق الباهت مبسوطة على الارض الخضراء •
وفتش عمن يسأله عن البيت المقصود فرأى غير بعيد منه
دكان مكوى فسأله عن رقم الدار فرمى الشاب المكوى من يديه
وقال

- انه رابع بيت بعد هذا الشارع •

فقفز الساقية أمامه ، ومضى يعد البيوت حتى وصل الى
البيت الرابع ووقف عند الشجرة الكبيرة المائلة ببابه كعملاق
يحرسه ، وتطلع اليه وهو يرقد فى احضان حديقة واسعة ...

وسره أن يرى بعض نوافذه مضاءة... وفكر قليلا في الامر
أيجمل به أن يطرق الباب وهو في هذه الهيئة المزرية كشحاذ
طريد؟!... ماذا ستقول له حين تراه بهذا الشكل؟!...
أمن الممكن أن تنكره وتتجاهل وجوده كما كانت تفعل في بعض
الايام وهي في زينتها

- خيرية... أنا مرهون... ألا تعرفينه؟

- مرهون؟... مرهون من؟!!

فحترق كالخشبة اليابسة وهو يتخللها تحديق فيه بعينها
الواسعتين النجلاوين.. نظرات نافذة تهبط كسهام على روحه
المعذبة... فقول لنفسه

- لا... سأنتظر حتى مطلع الفجر.

وهبت نسمة تداعه كأنها رسول عزاء وسلوة... وسرى
في تضاعيف الليل المطرز باضواء المصابيح وبلون القمر الفضي
عقب مفواح ارسلته الشجيرات المحططة به من كل جانب.. وهو
يرقب القصر الغافي وجذعه الطويل مستند الى أحد أعمدة
المصابيح الكهربائية.

ثم أخذ يحدث نفسه في وحدته

هنا... وفي احدى الغرف تعيش خيرية فرحة كفراشة...
نشوى كزهرة في صباح مشرق ندى... تتحدث... وتمرح...
وتضحك ملء شفيتها المثلثين كقطعيتين من البنجر دون أن يخطر

بها . . . الشخص المائل بالباب كالطريد يحمل جبا مقصوص
الحناح . . .

وحانت منه التفاتة فرأى خال امرأة في غرفة من غرف القصر
المطلبة على الطريق . . . فصفق قلبه بجناحين مضطربين
واشرأب بعنقه خلال الساج الحديدى القائم فى ظل الشجرة . .
كأنه مجموعة من الحراب لجنود غير منظورين . . . ورأى
الخيال من خلال الشباك المسدل الستائر يخطر فى الغرفة بخفة
وتثن . . فعرفها من مشيتها . . . ومن تشيها . . . وقوامها المثلئ
المائل الى القصر

وذكر أنه لم يرها فى عباتها الا مرة واحدة . . ومنذ
أمد بعد . . . فقد اختلس النظر اليها اختلاسا ، وهو يهم بطرق
الباب . . . ففاجأته فى المحاز العريض منحنية الى شئ تلتقطه . .
وأحست وجوده خلفها . . . فهربت مذعورة متعثرة بجائها . . .
وانطبع خالها فى فكره . . ولكنها تدو الان قد خلعت عذارها ،
وكشفت عن مفاتها مرة واحدة . . . فأخذ العجب ! .

وتسلل من خلال فتحة الباب الضيقة . . . وسار فى المر
الموصل الى بناية القصر على اطراف اصابعه . . وانحرف قليلا
نحو اليمين . . . ووقف قليلا تحت الشباك المرتفع عن قامته . . .
ربما يهدأ خافقه من التوثب ، وتعود اعصابه الى الهدوء . . .
وفجأه انطفاء الضوء . . . فهمس فى عقل

- خيرية ••• خيرية •••

وساد صمت قلق ••• وجمع الخوف من أن تفلت الفرصة من يده حظام شجاعته ، فرفع صوته بعض الشيء ••• ثم سمع فى الغرفة خفق خطوات مضطربة وأشبه شىء بصرخة مكظومة ، فارتاع ••• ومن أقصى يساره أنعت صراخ كلب مزق الصمت شر ممزق ••• فتسمر فى مكانه لا يريم ، وداهمه خوف قانط حين سرت فى القصر حركة غير اعتيادية ••• وفتح الباب الكبير وخرج رجلان بيد أحدهما بندقية ، وقفزا درجات عتبة القصر قفزا ••• وهجما عليه •

وسمع لفظة « لص ••• » تكرر أمام أذنيه وتتضخم فى مخيلته وتستحيل الى وشوشة فى رأسه ••• وتلقى ركلة آلمته ••• ولكمات أيد قوية انهالت عليه وصاح أحد الرجلين فى حنق - لص ••• ونحن ما نزال مستيقظين ؟ ••• يا للوفاحة !

وسجبه الرجلان الى النور ، وتطلعا الى وجهه الاسود وهيته المزرية وقال أحدهما وهو يصك اسنانه - هيئة لصوص ••• اتصل بمركز الشرطة ••• الناس يحتاجون الى تأديب •

فوخزه كلام الرجل فرفع اله وجها متشنج القسما

- أقسم لك بشرفى ••• اننى شريف •

- أ أنت عندك شرف ؟!

- أو

وضغط الرجلان على جسمه ومنعاه من الكلام ... فنكس رأسه باستسلام قانط .. وخرجت في تلك اللحظة امرأة مترهلة تتبعها فتاة فصاحت وهي توجه كلامها الى الرجلين

- ولماذا اتما واقفان ... اتصلا بالمركز ... هذا لا يطاق ... ويقولون في البلد أمن !

فتحسرج صوت مرهون وقال بصوت مضطرب

- أقسم لكم بشرفي .. اننى جئت أبحث عن خيرية •
فركله أحد الرجلين وهو يقول

- خيرية من يا أغبر ؟ ... أليست لك حيلة غيرها ؟
- أقسم لك بشرفي ..

- شرفك .. شرفك .. ما أرخصه !

- أقسم لك بشرفي ...

وكانت المرأة المترهلة الجسم اذ ذاك تنظر اليه بامعان وتفكير ... وفترت حديثها فترنحت قسامتها المتوترة .. وقالت بتسائل

واستغراب

- أتريد حقا خيرية الخادمة ؟

- أقسم لك بشرفي ... اننى ...

وخجل أن يقول أنه خطيها .. فقال :

- ان والدتها قد ارسلتنى اليها ... والدتها ماهية ...

ألا تعرفينها ••• أقسم لك بشرفى اننى غير لص •••
وتابع كلامه وسط صمت بارد باهت
- اننى ساكن معها فى بيت واحد ••• وقد ألقى أمها أن
تغيب مدة طويلة •
فهزت جسمها بحركة من يدها المكتنزة كساق صبى يافع
وهى تقول
- ان كان مقصدك هذا حقا ••• فقد سافرت خيرية مع
عائلة محمود بك الى الصرة منذ أسابيع
وشعر وهو يسمع كلامها أن فواه تنهار كجدار قديم تفككت
اجزاؤه ••• ولم يسمع الجدل الذى دار بين الثلاثة حول
مصيره ، فقد خل اله أن أى عقاب سنزل عليه لا يكون أشد
ضراوة من هذا العقاب ••• وبينما كان أحد الرجلين يقوده الى
الباب •• كانت تعربد فى نفسه رغبة قوية ••• فى الهكاء •

صُورَةٌ

استيقظ من نومه فزعا كأنه هب من حلم رهيب .. وطوف
بنظره فى أرجاء الحجرة الصغيرة فرأى الظلام ما يزال كثيفا ،
ونور الفجر يتسلل بخفوت من بين خصاص الباب .. فأزاح الغطاء
عن جسمه ووثب من سريره الى الشباك الصغير ففتحه فاندفع النور
الخافت الى الحجرة حاملا لذع البرد ورطوبة الجو .. فأحس
بقشعريرة تسرى فى جسمه العارى وتهز كيانه النحيل هزا فتناول
الغطاء الممزق والتف فيه وجلس على سريره مترجف الاوصال ..
يرسل نظره عبر النافذة الصغيرة الى الدنيا من تحته فرأى الضباب
يضى عليها حلتة الرمادية ويخفى معالم الاشياء ، وبدت له سطوح
البيوت ، والازقة الضيقة من بعيد كفضاء مليء بالحفر .. وخطر
فى فكره خاطر ابتم له ابتسامة شاحبة .. ان هذه الصورة الباهتة
التي رسمها الضباب أشبه شىء بطريق حياته المملوء بالعقبات
والحفر ! .. وأشاح بوجهه عن تلك الصورة الى غرفته .

كانت غرفة ضيقة الارزاء ، منخفضة السقف ، جدرانها
متآكلة سوداء من طول العهد ، يقبع السرير المنبعج الجوف فى احدى
الزوايا ، وتتناثر الكتب على الارض فى فوضى واضطراب ، وعليها

طبقات من التراب ، مختلطة بقشور البصل ، ورائحة الزيت ،
وبقايا الفول •

وتذكر أن عليه أن يخرج مكررا قبل أن يستقظ الناس ،
فان اليوم لا بد من أن يكون مشحونا بتكدير خاطر ، وامتلاء
النفس بالهموم ... فان عليه أن يدفع أجرة حجرته هذه المعلقة
في سطح الناية ، وان يقفل فم القال الذي لا يفتأ يغدق عليه
أثوابا من كلماته الجارحة •

وتناول قميصه وبنطلونه من المسامير المثبتة على الحائط ،
والتقط بعض الكتب من الارض ، وقفل باب حجرته في حذر ،
ومشى بتؤدة على رؤوس أصابعه كمن يخاف من شيء سيهبط عليه
فجأة ، ودفع باب السطح بتوجس فأرسل مزلاجه الصدى صوتا
هز كيانه هزا ، وبعث اليه رعبا ، فانتفض كيانه وحاول أن يمسك
به قلم أن يمزق السكون الحائم بصوته الاجش ... ودار في
نفسه أن الاشياء كلها تأمرت على اهاتته وتعذيبه ، حتى هذا
الباب الذي يعتر به كل الاعتزاز •

وأخذ يهبط السلم درجة إثر درجة ، ويده على قلبه ينظر
الى أبواب الشقق لعل مغفلا يفتحها ، ويقرؤه السلام بصوت
مرتفع ينبه صاحبة البيت ذات الجسم المترهل السمين وازداد
وجيف قلبه وتوتر اعصابه عندما اقترب من باب شقة في الدور
الثاني ... هنا مركز الخطر ... رباة ! .. هلا رحمت هذا

الانسان التمس فجنبته موارد الفضيحة والخجل ، ونجيتة من
اللسان الذلق يرسل الشتائم مدارا ، ويفيض الفاظا جارحة ...
ومر من الباب وهو يود لو يخلع حذاءه ، أو يطير في الهواء ..
وابتعد قليلا عن ينبوع الخطر ... وفجأة ... وقعت الواقعة ،
وانفتحت الباب وبرز منها وجه عريض مدور وصاح

– يا استاذ ! ... النهار ده كم في الشهر ؟ *

فأرتج على الاستاذ وعاوده اضطرابه فأجاب بصوت

مرتجف

– معلش يا أم السعد ... صبرك النهار ده حدليك كل

حاجة * فأجابت محتدة

– بعدين معاك .. هو أنا عاملة ملجأ وله جامع ... وله

حآكل هوه ؟

ونزل الدرج يتعثر ، وأقدامه تترقع على البلاط باضطراب
ومن غير نظام ولم ينظر وراءه كعادته كل يوم ليتمتع بالوجه
الصبيح الذي يملأ حياته المجدية أملا ، ويشرق في أعماقه القاتمة
بصيصة من تفاؤل ، ويهدى اليه شعورا عميقا بالارتياح ! ...
فانه اليوم منصرف عن التمتع بما يزخر في حناياه من ألم *

وعندما اقترب من نهاية الزقاق عاوده اضطرابه ، وتمنى أن
يكون ثمة نفق تحت أخمص قدمه يوصله الى الجهة الثانية بسلام
بعيدا عن الحاج مصطفى ، وما يشيع شاربه في نفسه من فزع

ورعب ، ولمح الحاج مصطفى مشتبكا مع امرأة في صراخ ، وفي كثير من الحذر انفلت من عيني الحاج مصطفى الحادثين وتنفس الضعاء حين أشرف على الشارع ، واستقبلته نسمة باردة كأنها تهنة بنجاته ورأى الترام على سابق عهده كسفينة نوح يترنج من حملة ويهز الارض هزا •

وفي طريقه الى الجامعة كان يحلم بشيء ينقذه من مأزقه •• حتى بدت له قبة الجامعة ومسلتها المرتفعة تسبح في محيط أخضر فأنعش روحه مرآها •

ولم يجد في نفسه رغبة في الاختلاف الى المحاضرات • ونظر الى الطلاب نظرة حزينة كمن ينظر الى عالم محرم عليه الدلوج اليه وهرع الى ملاحظ الرسائل بلهفة وأمل ، وهو يدعو الله أن يحقق رجاءه في رسالة تكون المفتاح الذهبي لمشاكله ، والنسمة العطرة تسرى في عالمه الخائق •• ورأى ملاحظ الرسائل كرجل عظيم مهيب يسيطر على مقدرات الناس ويفصل بين السعادة والشقاء بكلمة ينطقها •• ووقف الى جانب مكتبه لا ينبس بلفظ حرصا على أن يتمتع بكل لحظة من لحظات الرجاء وتتشي روحه من غير الامل في ترقب شيء جميل •• وحانت من ملاحظ الرسائل التفاتة فرأى صاحبنا في غيبوبة ساهيا سابحا في عوالم الحلم الجميل فقال بلهجة رثاء وقد عرف ما يريد •

- لا ... والله يا استاذ مفيش •

واستيقظ « الاستاذ » من غيبوبته كمن أنزلت على قفاه صفة شديدة ونظر الى ملاحظ الرسائل بوجوم ، ونقر نقرتين على مكتبه كأنه يريد أن يخفى الاضطراب الذى عم أرجاء نفسه ••• ورجها رجا كما ترج زجاجة فى داخلها دواء مر • وأشار برأسه محيياً ورجع ناكصا على عقبه يحمل بين يديه أزهار آماله الذابلة • وسار مطرقا تصل اليه أصوات رقيقة تداعبها أصوات خشنة ، وتطرق سمعه ضحكات آلمته لانه تصورها سخرية به واستهزاء منه ••• وسمع صوتا يناديه رقيقا غريبا على عالمه الخشن ••• والتفت وراه فرأى الوجه الذى كثيرا ما استرق اليه ، والذى لم يجسر فى الصباح أن يتطلع اليه لامتلاء نفسه بالمرارة وابتسم ابتسامة خجلة ، ومد يدا مرتجفة ، فضحكت ضحكة اعتزاز وقالت له انها كانت تنتظره فى الصباح ! ••• لانها تريد كتابا رأته مرة فى يده ••• واسقط فى يده ، لقد باع الاستاذ هذا الكتاب فى يوم افلاس عنيف ••• ولكن ماذا يقول لها ؟ ••• أيفضح نفسه أمام أعز مخلوقة عنده ؟ فوعدها أن يقدمه له فى المساء •

كان كل شىء يحدث بسرعة وبشكل خارج عن ارادته •• فانه يعلم أنه لا يستطيع أن يجد لها هذا الكتاب ، وأنه لهذا لا

يرغب فى موعد يكون فيه فى موقف مضطرب ...

وودعته باتسامه عذبة .. ولكنها كانت بالنسبة له سهما جارحا . ان هذه الفتاة لا بد من انها مرسله اليه من القدر لتعذيبه . لقد قضى طوال شهور اربعة ينظر اليها وفى نظراته كل ما يكن لها من حب ولكنها كانت تقابل نظراته بازدراء وتتجاهله تجاهلا تاما ... كان يسعى الى أن يجمل مظهره الخارجى ويخرج اليها بالشكل اللائق وان كان جسده أخلى من فؤاد أم موسى ومعدته ممتلئة هواء ... حتى اذا أفلس جاءت له لتكلمه وهو يلاحق القرش لأى مطرح يطرح فيه ...

وفجأة مد يده فى جيبه وتلمس القرش « القابع فى احدى زواياه فارتاح لانه لم يضع حتى الآن .. ووقف مفكرا ان هذا القرش الملعون هو الاخر يعذبه .. لقد وقف حائرا .. معه ! أى شى أفضل له وأكثر منفعة أن يدفعه أجرة لذهابه الى القاهرة ، أم يدخره لساندويج من الفول المدمس ... واحس بجوع يصهر فؤاده فهان عليه طول الطريق وتعلل بمناظر النيل الجميلة ، والقصور الفخمة ، والسيارات الامريكية تخطف الشوارع خطفا ... وظل طول الطريق يفكر ، ويسبح فى عوالم جديدة خلقها خياله ... وبعد لأى لاحت له القاهرة الصاخبة ذات المباني المرتفعة والشوارع المزدهمة ، والمخازن التى لا يدخلها الا من امتلأت جيوبه بأوراق البنكوت ، وعبقت فى

أنفه روائح عطرية صادرة من داخل تلك المخازن ، ومن رفرقات
الاثواب الحريرية التي تمر به مسرعة .. وانتشى من تلك الابهة
المحيطة به ، والغنى الوافر من حوله .. وظل ساهما يطوف من
غير غاية ، سكران من خمرة همومه ، تائها في بحار سأمه ، حاملا
مشاكل الدنيا كلها على كتفيه ... ورأى مكتبة تعرض الكتب
بشكل مفر جذاب ... فخفق قلبه ، وصرف اليها فكره
وحواسه .. ووقف الى جانب معرضها يقرأ عناوين الكتب ،
ويستلذ بتريد أسماء من أحبهم من الكتاب والشعراء ، وتمنى أن
يدخل الى المكتبة ، ويتربع على أرضها النظيفة الباردة لانه تعب
جدا ، ولا يستطيع أن يزيل تعة الا الارض يضطجع عليها ، ثم
يمسك كتابا من تلك الكتب التي أحها من أعماق قلبه وينغمر
في أجوائها ، وينتقل من دنياه القائمة المرهقة الى دنياها العابقة
بالشذى المسكر ... وتذكر أنه جائع .. وأن الجوع يجعل
فؤاده كطائر مذبوح ، وأوصاله ترتحف ضعفا وخورا ...
فقال في نفسه لا بأس من رغيف خبز .. وماء مثلج يعين الفم
الجاف على ابتلاع الخبز من غير أدام .

وضحك من نفسه وازدراها لانها لا تتفنن الا في الخيال
وفي الاحلام

وترك المكتبة وقواه منهارة ... ورجلاه لا تستطيعان أن
تحملا جسمه ... ولمح من بعيد محلا للفول المدمس ، منزويا

في ركن كثقب كبير مظلم الاعماق فسار اليه بخطى مضطربة ..
ومد يده الى جيبه مرة أخرى ليتيقن أن القرش ما زال صابرا
في ظلام جيبه ... ودسه في يد النوبي الواقف وراء القدر
الضخم تدور عيناه بحركة لولبية في الوجوه المحيطة به ...
وتناول الرغيف الاسود المحشى بالفول ، وراح يقظمه بشراهة
غير ملتفت الى أنظار الناس وهي تحددق به ، ولا الى النوبي وقد
لمعت اسنانه لمعانا أبيض ناصعا ...

وعندما خرج من المطعم كان الليل قد أقبل .. وأقبلت معه
الكآبة والضجر .. وشعر بأنه في حاجة الى نوم عميق ... فود
أن تطوي الارض أمامه ويصل الى غرفته دون تعب ولا منغصات
... غير أنه تذكر أن غرفته محاطة بالالغام ... ربة البيت
تنتظره وعلى لسانها ملحمة طويلة من السباب .. والحاج محمود
لا شك في أنه يرسل الآن نظراته الحادة عبر الزقاق مستعدا
لمنازلته وأخذه من تلايبه ... وفتاة أحلامه تلك التي وعدھا
في ساعات من ساعات الخجل أن يعطيها ما ليس عنده ... فهي
تنتظره الآن على باب الشقة .. كقدر مرصد لتمزيق روحه ..
وتحير أين يذهب ... والليل في أوله ... وقواه قد شلت
... فلم يجد مناصا من التسكع ... فقد اعتاد عليه في الاوقات
التي يزمرجر في حياته الفراغ ويلذعه الحرمان ... وعند الساعة
الحادية عشرة عاد الى بيته *

وعندما كانت الانوار تتلألأُ باغراء تدعو الناس الى قتله
ليلة صاخبة ... كان هو يحس بان الحمى تلتهم جسمه ...
والصداع يكاد يحطم رأسه ...

القاهرة : شتاء ١٩٤٩

مزرعة الحقد

قال لى محدثى

عندما طرقتوا باب دارى فى الساعة الثالثة ليلا لم تصنى أية دهشة • • فقد كنت اتوقع قدومهم لحظة بعد أخرى • • لقد جاءوا عند الضحى • • ثلاثة من ذوى النجوم البيضاء وآخرون غيرهم • • ودفعوا الباب بقوة ودون استئذان • • ووصلوا الى باحة الدار بخطوتين • • ولم يكن فى الدار غير النساء • • فلما رأينهم يقتحمون عليهن حرمتهن ، ويندفعون كالسهم الطائش لذن فى الغرف فزعات معولات • • وبقيت عجوز لم تقو ساقاها على الهروب • • فجلست فى مكانها مدلهة تنظر فى الوجوه المكفهرة الجائعة الى ما يشبع حقدها وسألوها بلهجة فظة عنى فصرخت فى وجوههم

- ماذا جرى له ؟ • • أية جريمة ارتكب ؟! • •
غير انهم نظروا اليها بسخرية وترفع • • ولعلمهم أدركوا كم هى ضيقة العقل ناقصة التصور ، قليلة الادراك • •
وفتشوا كل الغرف • • ونظروا بتطفل فى كل الزوايا • •
وأدخل أحدهم رأسهم فى النور المتهمم فى وسط البيت • • •

ووطأت أحذيتهم الضخمة أسرة النوم ومخادع الأزواج ••

ولما لم يجدو شيئاً •• خرجوا ••

وعندما طرَقوا الباب للمرة الثانية فى الساعة الثالثة كان الليل يرتعش خوفاً من إقبال فجر جديد ، والنجوم تتغور واحدة بعد أخرى ، وكنت فى فراشى أحلم بالحرية ترفرف فى سماء بلادى ، وبالسعادة تتغلغل فى كل مكان وتعم كل إنسان وبالسلام يخفق لوائه على جميع الناس • غير أن طرفاتهم بعثت حلمى ، كما تشعر يد قاسية أوراق زهرة عطرة ، فنهضت من فراشى فزعا ، وأرتديت ملابسى على عجل ••

ورأيت سيارة تنتظرنى فركبتها معهم ، واخرقنا الشوارع المقفرة الا من سيارات تظل منها « أشياء كآنياب ذناب جائعة ، ويحرسها رجال اطقاً البرد القارس بريق أعينهم ••

كانت تلك الليلة أشد ليالى الشتاء بردا ، وعندما كانت السيارة تنطلق كان النسيم الرطب يلفح وجهى ويمتص دمى ، وكانت اطرافى متجمدة تماما لا سلطة لى عليها ، وكان جسمى كله تسرى فيه قشعريرة مستمرة كأمواج لا آخر لها ، وكنت وأنا قابع فى ركن السيارة أحس أن محركها الذى يزمجر فى سكون الليل كحيوان فقد صوابه سوف لا ينتهى من حركته حتى يقف قلبى عن الحركة وأودع عالم الناس ••

ورأيت فى الضوء الشاحب المحققن عيوننا ترمقنى بنظرات

شرسة وكأنها وسط جو يسيطر عليه الموت الابيض .. لا تحس
الا بشعور واحد ... أن تزرع الحقد فى كل شىء يقع تحت
طائلها ..

وسألت أحدهم

- الى أين أنتم ذاهبون بى ؟ ..

فبرقت عيناه بريقا أسود .. ومط شفتيه بازدرء ..

ولم يجب ..

ووقفت السيارة بعد جولة تعذيبية فى شوارع عراها البرد
من كل مظهر من مظاهر الحياة عند ثكنة سوداء اللون ، وأنزلونى
من السيارة ، ووضعوا الحديد بى .. ومشى الرجل الماسك
بطرف السلسلة دون أن يخطرنى .. وسجنتى فظاظة خلفه
كحيوان مكروه ... فتبع خطواته وهى ترسل فى الجو الجوامد
أصواتا ذات رنين ممقوت .. وصفرت الريح وراءنا صفيرا
مبحوحا مريضا بعد أن مرت فى فضاء الثكنة ، وتشبعت بالكآبة
الصدئة الحائمة على صدرها ..

ووقف الحذاء الضخم بحمولته أمام غرفة .. دفعتنى يد

غليظة الى داخلها ..

فوقفت عند بدايتها أنظر الى تلك الاشباح المتكدسة فى
انحائها على غير نظام ، مضطجعة على أرض قدرة سوداء ، ومتقية
البرد بأثواب ممزقة وارسلت عيونها نظرات شرهة الي كما ترسلها

الى مخلوق قادم من عالم ودعته منذ زمن بعيد ! .. رأت آثاره
فى ملابسى التى لم يصبها الوحل ، ولم يعفرها النوم على الارض ،
وفى نظراتى التى ما زال نور عالم الحرية يترقرق فيها ..
وجلست معهم فى صمت وألم .. كانت الغرفة قدرة
كزربية للحيوانات ، سوداء كمطبخ قديم ، ننته كمجمع للنفايات ..
ورأيت الحوض الذى يحتل ركنا من أركان الغرفة تتجمع فيه
فضلات الانسان ويرسل رائحة كريهة تقطع الاحشاء تقطيعا ،
وتجعل التنفس عسيرا مقززا يسحق الروح بين فكى رحى
هائلة ..

وحاولت جاهدا أن أغيب عن الوجود بأى ثمن فأطبقت
جفنى ولم أكن أعرف قبل ذلك أن الانسان يحمل لآخيه مثل هذا
الحقد .. لقد بدأت معانى الحياة تتساقط كأوراق ذابلة فى خريف
جاف مجذب .. واصبح الماضى كجزيرة تغيب شيئا فشيئا عن
ناظرى .. وبدأت أفتش فيه عن جريمتى .. تلك التى سأقتى
الى هذا المصير .. بين حنايا الماضى وزواياه .. ان الناس ليرتكبون
فى وضح النور جرائم لا عداد لها يصابون بالتخمة من جوع
الناس ، ويشربون الكؤوس من عصارة حناهم ، ويشترون الجاه
بيع مصائرهم .. ولكنهم طلقاء يعمون بالحرية ، وبالحياء الهائلة
الרגيدة .. أما أنا فكل ما أحمله فى نفسى هو هذا الحب العنيف
الطاغى للناس جميعا ، هو هذا الشغف الحاد فى ضمان مستقبل

مضى ، كنهار سماؤه صافية •• ان المحبة فى روحى كأغنية رقيقة •
أريدون أن يذبل نغمها ويموت؟!

وفتحت عيني بملل وفتور •• فرأيت الاشباح قد تكورت
•• على الارض السوداء •• كتل ضخمة لا حراك لها •• كأن
الارض الرطبة قد امتصت كل حيويتها فألتصقت بها كما تلتصق
قطع من الخشب على لوح من الجليد •• وانبعث من جانبي الايسر
شخير موحش كنعب بوم جريح •• ومن جانبي الايمن تأوهات
متقطعة لا شعورية ••

وتحركت كتلة أمامى حركة تتم عن الغيظ والامتعاض ••
وهب رجل من نومه بفزع أبله حاسر الرأس متفتح العينين ••
وأدخل يده فى جسمه وهرشه بقوة •• حتى سمعت أصوات
الاذافر محوحة •••• وخلع قميصه فجأة ، فبدا صدره العارى
توشك أضلعه أن تقفز من جلد تشوب لونه الاسمر زرقة
كدره •• وأخذ يقلب القميص بين يديه •• ويفتح ثناياه •••• ثم
يخرج منها شيئاً ما يهرسه بين اصبعيه •••• ثم يسحقه بأظافره
بنشوة وتشف ••

وحانت منه التفاتة فرآنى وتحول الي وجه أمرط متراخى
الجلد •• أهم ما فيه عيان واسعان جامدتان •• كأن فنا عبقرىا
رسمها بدقة على صفحة وجهه الداكنة •• وقال بلهجة أجنبية
مضحكة وهو يشير الى قميصه المسبل على حجره

– ماذا أعمل ؟ ان جسمى لم ير الماء منذ أكثر من سنة
وأهتز جلد وجهه وتنى كأنه شيء مفصول عن مجتمه
وتابع حديثه •

عشرة أشهر فضيت فى هذه الغرفة المظلمة ••• لا أخرج
منها الا للمراحيض ••• مرة واحدة فى اليوم •

وتفرس فى قميصه وحرك أصابعه عله وأكسى وجهه
صرامة مضحكة ثم رفع وجهه الي فبت عيناه ضاليتين فى صفحة
وجهه من غير حاجيين ولا رموش فى حين تلدت من أسفل خديه
قطعتان من الجلد المتراخى وقال بحرقه وانفعال

– نحن قد زهدنا فى الحياة •• والحياة لا تزهد فىنا ••
فما أشق هذا العيش !

وبلع ريقه فبرزت عروق رفته ومال الي وهمس

– لقد هربت من عائلتى فى ايران •• تعسا لتلك العائلة ••
عشرة بطون لا تشعب •• قلت لنفسى أأنت حمار •• ثور ••
تكذ لها طوال النهار وجزءا من الليل •• لماذا لا تهيم على وجهك
فى أرض الله الواسعة •• أهرب •• تخلص من حمل لا طاقة
لك بحمله •• فهمت على وجهى سيرا على الأقدام •• لا أعرف
الى أية جهة أقصد •• حتى هجم علي رجال يحملون أسلحة ••
وقالوا تجاوزت حدود بلادك ودخلت الى العراق •• بابا ••
أنا لا أعرف حدودا •• ما هى الحدود ؟ •• كلها أرض الله ••

أوه ... لقد قضيت خمسة عشر عاما من عمري في العراق •
وصمت قليلا وفلتت من يديه حشرة سقطت على الارض
السوداء فطاردها بلهفة كفه المتوكئة على أصابع هزيلة ••

- وأخلونى الى هذه الغرفة ... وقالوا سنرسلك الى
بلدك فى اليوم التالى ... الا اننى بقيت عشرة أشهر لا أحد يسأل
عنى •• ولم يأت اليوم •• التالى حتى الآن

وتحركت فى عينيه الجافتين معانى باهتة للحياة وتهدل جلد
وجهه أكثر من ذى قبل وقال بخنان

- أتدرى •• اننى مشتاق لاولادى •• سبعة عصافير
لحمية •• أوه •• ما أسوأ حظى ! ••

وأنتهى فى تلك الساعة من تقلب قميصه فأدخل صدره
العظمى فه وقال

- من يدرى •• فقد يكون الفرج بسبيكم •• فقد بدأت
تفدون جماعات •• جماعات •• حتى أخذت الغرفة تضيق ••
يا رب ! ••

وألثفت الي بسرعة وقال هامسا

- ما السبب ؟ ••

- سبب ؟ •• أى سبب ؟ ••

- ما السبب فى أنهم يأتون بكم الى هنا ؟ ••

وتفرست فى وجهه المرتسم فى صفحته الكدره تساؤل
مرتجف وقلت

- أوه .. نحن نطالب بالحرية لوطننا .. والسلام لجميع
الناس .. نحن نحب جميع البشر الطيبين ..

وصمت قليلا وبدا له الامر محيرا فأدار طرفه فى أرجاء
الغرفة .. فرأى أكداى الاجسام ما زالت مرمية فى أماكنها
ملتفة بأغظيتها الداكنة الخفيفة وهمس فى أذنى

- أتدرى ؟ .. انكم شيهون بنى وطنى .. أتدرى ...
انها فظاعة واعتداء على الله ...

وارتجف جلد وجهه الامرط وهز منكبيه بانفعال وقال
- الله يحب العدل والسلام أنا شخصا أكره الحرب ...
أوه .. الحرب .. الحرب .. لقد قتل والدى بالحرب .. مات
لى أربعة أطفال من الجوع .. زمن الحرب .. وعشت على
نخالة الطحين .. أنا وأطفالى .. زمن الحرب .. لماذا يحبون
الحرب ؟ .. الانسان لا يجب شئ لو لم تكن له منفعة به ...
وخيم على الغرفة الموحشة همود بارد عندما صمت الرجل
ذو الوجه النحاسى المغبر .

لقد أحسست بعاطفة ندبة تولد فى نفسى ...
وتملكنى شعور لاهب بالفوز . لقد أغتصبوا حريتى لانى
أدعوا الى ما أو من به .. لانى أبشر بحياة هائثة يسود فيها السلام

والطمأننة •• وهم يحسبون ذلك كفيلا بالقضاء على ما أبشر
به •• غير أن هذا الرجل البسيط خلق الثقة في نفسى •• لقد
علمه الواقع أن يكره الحرب •• أنه يضر لها في نفسه
ذكريات مريرة ••

وشعرت بارتياح عميق لهذه النتيجة •• ان هناك ملايين من
الناس السطاء يؤمنون مثلى بالسلام لانه شىء طبيعى كحياتهم
ويكرهون الحرب مثل ما يكرهون القسوة والظلم والشذوذ ••
فرفعت رأسى نحو الباب الحديدى الضيق •• فرأيت طلائع
النور تكافح لتديد ظلمة الغرفة فتسلل من وراء القضان كأرواح
شفافة ••• فهزعت الى الباب ولمحت من بعد ضوء الشمس •••
فوقفت أصرخ بانفعال وحدة

أيتها العين الثاقبة •• يا معين الكراهة لكل ظلمة •
أنا هنا لاننى مغرم بك •• محب لك متمثلة فى كل شىء ••
اننى لآؤمن بشئين ايمانانا لا نهاية له
اشراقك كل صباح كل يوم •• وانتصار الحقيقة •

كتاب الطليعة القادم

الربيع والجوع

بقلم
حسين مردان

الفهرس

الصفحة

٣
٥
١١
٢٩
٤٥
٥٩
٧١

الاهداء

المقدمة

حصيد الرحي

بيت الخنافس

موت أمل

صورة

مزرعة الحقد

منشورات دار الطليعة

صدر منها

لصلاح سلمان
لعبدالمجيد الوندأوى
لقائب طعمة فرمان

السجن الكبير
من يوم الى يوم
حصيد الرحي

ثمان النسخة (١٠٠) فلس

صورة الغلاف

بريشة الفنان محمود صبرى

